٣-٣

8 أيام في عدن جوهرة البحر العربي

في عام1923 م أقام الإنجليز مشروع سكة حديد يربط (المعلا والشيخ عثمان ولحج)

في عام1840 م كانت مدينة الشيخ عثمان غابة من الأشجار والأحراش

صباح يوم السبت ٩ (ذو الحجة ٥/ نوفمبر) غادرنا مطار صنعاء الساعة التاسعة على طيران السعيدة متوجهين إلى عدن التي وصلنا إلى مطارها بسلامة الله وحفظه الساعة .٩/٣٥ وذلك لقضاء أيام عيد الأضحى المبارك مع الأهل والأصدقاء وهم كثيرون في عدن جوهرة البحر العربي.. والعاصمة الاقتصادية والتجارية لدولة الوحدة..

والحديث عن عدن حديث ذو شجون خاصة في أيام العيد الذي تزامن مع جوّها الشتوي الجميل في شهر نوفمبر بعد أن ودع أهل عدن حرارة الصيف.. ولذا أحتضنت عدن الجموع الكبيرة من أبناء المحافظات الشمالية الذين وصلوا لقضاء إجازة العيد في عدن الحبيبة التي تزهو بجبل شمسان الشامخ في كبرياء وهو يطل على محافظة عدن ومديرياتها الجميلة (كريتر والمعلا والتواهي والشيخ عثمان وخور مكسر والمنصورة ودار سعد والبريقة) الزاخرة بأهلها الطيبين ومعالمها التاريخية العريقة وجمالها الطبيعي الخلاب المتمثل في شواطئها الذهبية والحدائق الغنّاء.. والطمانينية والسكينة والأمن والاستقرار..

رياض شمسان

أهالي تهامة علّموا أهل عدن زراعة بساتين الخضار

ينبغي أولاً توفير الأسماك للاستهلاك المحلي .. وبعدها تصدير الفائض إلى الخارج

في مسقط رأسي مدينة الشيخ عثمان التي ولدت فيها عام١٩٤٥ م ونشأت وترعرت ودرست وعشت فيها طفولتي وشبابي وتزوجت وعملت مدرّساً فيها حتى نهاية عام١٩٦٩ م.. ثم غادرتها إلى صنعاء التي ما زلت مقيماً فيها حتى اليوم..

هناك في مدينة الشيخ عثمان التقيت في جلسة مقيل قات بعدد من الأصدقاء القدامى من مناضلي ثورة١٤ أكتوبر المجيدة ومثقفين وغيرهم.. ودار الحديث فيها عن ذكريات الماضي وكذا حول عدد من القضايا الآنية والتي سنتناولها هنا تفصيلاً بعد التعرف أولاً على هذه اللقطات التاريخية عن مدينة الشيخ عثمان.. كما وردت في كتاب (محطات حياتي) لمؤلفه المستشارالقانوني الراحل الأستاذ/ حسين علي الحبيشي – رحمه الله –.

لقطات تاريخية لمدينة الشيخ عثمان

الشيخ عثمان سنتناولها من حيث الموضع والإنسان والموقع، وإذا بدأنا عكسياً بالموقع فهي تقع بين حوطة لحج ابتداءً منذ القدم المعروف من دار سعد إلى خور مكسر، وتمتد شرقاً حتى البحر وغرباً حتى مدينة الشعب (الحسوة) ثم البريقة والخيسة ونقم وعمران الذين يحدونها من الغرب، ومن ثم كان موقعها ذا أهمية استراتيجية واقتصادية واجتماعية.

أما من حيث الموضع والإنسان فلا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض لأن الزمان هو الجامع لهما وهو التاريخ، ويقال في التاريخ الحديث المسجل ابتداءً من عام١٨٤٠ م أن الشيخ عثمان كانت غابة من الأشجار والأحراش، وفي١٨٥٨ م لوحظ حفر بئر مياه فيها ونشوء قرية يسكن فيها حوالي ٥٠ نفراً من الصيادين والجمّالة بنيت فيها قلعة محصنة وأصبحت بعدها مركزاً للقوافل. وفي١٨٦٨ م اتفق البريطانيون مع سلطان لحج على تزويدهم (في عدن كريتر) بالمياه من الشيخ عثمان، وعندما ازداد التشابك مع البريطانيين في عام١٨٧٤ م طلب السلطان فضل بن محسن حماية الأتراك في شمال اليمن، وبعد المقاومات الفاشلة لسلطنتي لحج والفضلي لتوسعات البريطانيين، قام السلطان بالبيع للبريطانيين كل من خور مكسر ثم الملاح وأخيراً الشيخ عثمان بمبلغ ٢٥.٠٠٠ روبية، وذلك في عام١٨٨٢ م وفي عام ١٨٨٥منح الإنجليز لشركة هندية حق استخراج الملح ثم لشركة إيطالية في عام١٨٩٩ م منح نفس الحق.

وقد فكّر البريطانيون في إقامة مواصلات سكة حديد توصل عدن بالمحميات عام١٩٠٥ م (وربما كان المشروع مرتبطاً بالسكك الحديدية الاستراتيجية التي أراد أن يقيمها الأوروبيون بإذن العثمانيين، والإنجليز في الجنوب والفرنسيين في شمال اليمن من الحديدة – رأس كتيب والعثمانيين من مكة أو المدينة إلى الشام والألمان من بغداد إلى استانبول) ولكن المشروع الإنجليزي لم يبدأ إلا في١٩٢٣ م من المعلا ليخترق الشيخ عثمان إلى الحوطة.

وأتذكّر كما قال الكبار أنه توقف بعد ثلاثة أعوام كما أتذكر قضبانه حتى وقت قريب في المعلا وعرباته في سيلة الشيخ عثمان التي كنا نلعب داخلها ثم استخدمها الأهالي كسكنى ودكاكين، وقد كان للمدينة شأن منذ حرب الحلفاء والمحور بين١٩١٤ م و١٩١٨م، كانت بريطانيا مع الحلفاء وكان العثمانيون مع المحور، وقد زحف القائد التركي سعيد باشا بجيشه المكوّن من ضباط عثمانيين وجنود أكثرهم من شمال اليمن، خاصة مناطق الحجرية وماوية، وفيبداية الهجوم وصل العثمانيون إلى الشيخ عثمان وأطراف خور مكسر، ولكن جيشهم لم يكن له القدرة البحرية التي للأسطول البريطاني، ثم للإمدادات المتدفقة من جنود الهند فاضطر العثمانيون للانسحاب إلى الحوطة، هكذا الغزاة حينذاك ضباطهم منهم ووقود الحرب هي من جنود البلدان المحتلة، ثمة حادثة طريفة يتحدّث عنها الكبار وهي أنه عندما اضطر البريطانيون للانسحاب من الشيخ عثمان قام الأهالي وعلى رأسهم أحد الفتوات، اسمه (بانتيشه) باستدعاء العثمانيين إلى المدينة فلما انسحبوا سلّموها لهذا البانتيشه وأصحابه، حتى عاد البريطانيون وقد عرفت هذه الشخصية عن قرب، طويلاً، أسمراً، مهيباً، ذا صوت أجش وكأنه في إطار صورة من صور الأساطير.

وقد خطط البريطانيون المدينة في أربعة أحياء مربعة: حي)A (واشتهر بحي الأصنج ودغبوس وحي)B (وسُمّي بحي الولي الهاشمي وحي) C (واشتهر بحي الحفيص (أي مكاتب البلدية وكان ميلادي في هذا الحي) و) D(الذي بُنيت في أطرافه كلية بلقيس ومدرسة بنات، وتوسعj المدينة بعد ذلك بإضافة حي القاهرة للفقراء قديماً ثم المنصورة التي أصبحت مدينة مع قسم كلتكس وحي المدارة، وأثناء الاستقلال من البريطانيين بنيت عمارات (ليبيا والإمارات، عبدالعزيز والمكاوي).

وقد استمر التوسع أيام البريطانيين الأخيرة فبنوا مدينة الشعب على أنقاض الحسوة والرباك وخلفها منطقة حاشد، ولتلك التسمية قصة أتذكرها وأنا صغير السن، إذا كانت الهيئة الصهيونية لتهجير اليهود إلى فلسطين قد نشطت من عدن لإغراء يهود اليمن أولاً من صنعاء وحواليها ثم عدن، ويقول بعض الكتّاب أن المستعمر قد قاوم سواعي وقوارب تهريب اليهود عبر المخا إلى عدن ثم أذعن للضغط الصهيوني على لندن، فكانت السلطات تجمع النازحين اليهود من منطقة اسمتها حاشد لاعتقادها أن الجميع أتوا من تلك المنطقة في شمال صنعاء، ومن الجدير بالذكر أن تلك المنطقة كانت قد استخدمت أثناء الحرب العظمى الثانية معسكراً للأسرى الإيطاليين من الحبشة، وكنت ورفاقي نذهب لمشاهدتهم وراء الأسلاك.

وإذ كنا قد سردنا نبذة عن الموقع والموضع للشيخ عثمان، فبالأحرى علينا أن نتكلم عن الإنسان في تلك البقعة العزيزة من الوطن، ولكن للاستدراك لابد من ذكر مصدر التسمية للمدينة، فالشخص (عثمان) كما يقول الرواة كان جمّالاً يرعة الجمال ولكنه كان مشهوراً بورعه وتقواه، فلما توفي أقام له الأهالي ضريحاً ومزاراً يختص به كل عام، وكذا الشأن بالنسبة لضريح ومزار (الهاشمي) الذي كان يعمل لدى التاجر الفرنسي الـ (بس) وكان هو أيضاً تقياً ورعاً فطلب من رب العمل أن يتوسط لدى السلطة لبناء جامع حتى يمتنع الرجال والنساء من استخدام الشارع للببغاء، ولكن السلطة رفضت طلبه في بداية الأمر، فهدد بأن يدعي الله أن يخسر البريطانيون الحرب، فنقل رب العمل ذلك الخبر كنكتة لحاكم عدن الذي وافق أخيراً على إقامة المسجد ثم الضريح.

وعودة إلى الإنسان في ذلك المكان (الشيخ عثمان) فقد كان السكان خليطاً متناغماً (ليس كمدينة كريتر) الأغلبية يمنيون من محميات عدن أو من شمال الوطن (أما كريتر فيكثر فيها ذو الأصول الهندية والأفريقية وغيرهم لأنها ميناء) كما توجد في الشيخ عثمان حواري لليهود وأخرى لما كانوا يسموا بالأخدام والعبيد. وبالنسبة للديانة فالغالبية العظمى مسلمون مع مساجدهم، ولا يوجد سيناجوج يهودي وإن وجد منزل يصلون فيه، كما لا يوجد معبد هندوكي ولكن في أطراف مدينة الشيخ عثمان القديمة (الشيخ الدويل) توجد الإرسالية الأسكتلندية، وهي عبارة عن مدرسة ومستشفى ومبنى يُستعمل ككنيسكة وقد قامت هذه الإرسالية بسد فراغات الإهمال للشيخ عثمان من حيث خدمات التعليم والتطبيب، ولم يصبح مسيحياً على يدها خلال مائة عام إلا شخص واحد كان بدوياً أصبح دكتوراً، والله أعلم هل تنصّر في وجدانه أم أنه قضى حاجته للرقي.

ويعمل أهل المدينة (الشيخ عثمان) في شتى المجالات، فالمتعلّمون يلتحقون في وظائف الحكومة المختلفة والتجار في دكاكينهم والمهنيون قليلون جداً (إذ لا يوجد طبيب عربي سوى عفارة الذي أرسلته الإرسالية الأسكتلندية للتخصص) والمهندس لا يوجد سوى هندي (كرستاني) هو الآخر ولا يوجد محامون أو محاسبون أو قضاة (ويلاحظ أني هنا أتحدّث عن أيام صباي وحتى عام١٩٤٨ م) أما بعد ذلك وحتى عام١٩٦٧ م فقد وجد في الشيخ عثمان والمستعمرة ككل الأطباء والمهندسون والمحامون والقضاء والمربون يزيد عددهم أو يقل حسب الحاجة. أما الطبقة العاملة يدوياً فيأتي ذكرها حسب الأعمال والصناعات المتوفرة في المدينة، ففي مكاتب الدولة والقطاع الخاص يوجد (الكرانيات) الكتبة و(الباطوالات) الفرّاشون أو السعاة والمنظفون. ومن الصناعات التي كانت سائدة في ذلك الحين، إعداد الملح وصباغة الثياب ونسج الملابس (وقد تخصص فيها أهل دبع من الحجرية) والعمالة في الورش والمصانع الصغيرة وللنساء التطريز للكوافي وسياحة الزنابيل والخزف وفي منطقة المدارة صنع الفخار (الكواز وجحال وأزيار)، وثمّة صناعات أخرى قد أكون أغفلت ذكرها، وفي المدينة توجد المعاصر لزيت (الجلجل) وكم كان يسرنا ونحن صغاراً أن نذهب إلى معصرة (مبجر) أو مجور لنرى الجمال وهي مستورة النظر يميناً وشمالاً حتى لا تحيد عن المسير الدائري، ولتدفع المطحنة لطحين الجلجل ومن ثم أخذنا نشبّه كبار الناس بعد أن كبرنا بتلك الجمال، لأنهم يتمحورون حول ذواتهم ولا يؤمنون بالرأي الآخر، وفي خارج تلك المعصرة كان هناك رسم لأسدين منحوتين في واجهة المعصرة، وأصبحنا نشبّه الذين يتظاهرون بالشجاعة الأدبية أو الجسدية بأنهم أسود معصرة.

أما التجارة في المدينة وعبرها، في ملتقى لكل الطرق البرية المؤدية إلى موانئ عدن (كريتر والمعلا والتواهي) فمن لحج تأتي بعض الخضار والفواكه والحبوب، ومن المدن الشمالية يأتي البُن والحبوب والفواكه والخضار (وبعض القات الذي لم يكن قد انتشر داؤه كما هو الآن) كما تستورد المواشي والدجاج وبيضها وكثير من المواد والمأكولات، وأهم ما يأتي من تلك المناطق الإنسان العامل، ومن طرائف الأمور تخصص القادمين حسب المناطق، ذلك أن اليمني يرى ماذا يعمل ابن قريته الذي سبقه فيقلّده تقليد الأعمى دون النظر إلى حاجة السوق، ومن ثم تَرى أبناء لحج يعملون في إعداد الحلوى بأنواعها وبيع الخمير والدُخن وبعض مطاعم الفول كما أتذكر وأبناء تعز والحجرية حسب قراهم (الشيباني) في المخابز و(الدبعي) في مطاعم المرق و(الأغبري) في التجارة أو تقديم الخدمات و(العبسي) في استديو هات التصوير و(المقطري) في بيع القات تلك أمثلة لا يجوز التخصيص عليها، أما بعض أهالي صنعاء الذين يأتون إلى الشيخ عثمان أو كريتر فيعملون في التجارة أو فن الغناء والكثرة التي تأتي من منطقة رداع فكانوا متجمّعين في منطقة ميناء المعلا، ثم يأتي بعد ذلك أهالي تهامة من أي منطقة أتوا أكانت زبيد أو المخا أو الخوخة أو بيت الفقيه أو اللحية أو ميدي فيطلق عليهم لقب واحد (الزبود) وهم الذين علموا أهل المستعمرة زراعة بساتين الخضار حول الشيخ عثمان، ومن الجدير بالذكر أن معظم القضاة الشرعيين للمستعمرة كانوا يختارون من أهل زبيد لما اشتهرت به من علم ديني سُنّي، أما أهالي ريف المستعمرة أو ما أسماه المستعمر بالمَحميات ومعظمهم كانوا يلتحقون بجيش عدن والمحميات المسمّى (الليوي) والحرس الحكومي والحرس القبلي، ومن الجدير بالذكر أن أول كتيبة أنشأها البريطانيون كان معظم رجالها من المناطق الشمالية وكانت تسمىFirst (Yemenفص يمن) ولكنهم اضطروا لاستبدالها بأبناء المحميات لأنهم كما روي لي رفضوا محاربة الإمام أو لأنهم كانوا أقل انضباطاً.

ولا يجوز إنهاء الحديث عن الشيخ عثمان دون ذكر (الحوطة) عاصمة لحج، وصلة المدينتين ببعضهما البعض، فسلطان لحج هو الذي كان يدعي ملكية الشيخ عثمان والذي باعها للبريطانيين – ربما اضطراراً – والحوطة هي التي كانت تموّن الشيخ بزادها ولحومها وبقولها إما مباشرة و عبر القوافل الواردة من الشمال، ومن لحج جاء أول سكان المدينة فأسسوا (قرية الشيخ الدويل) التي كانت باكورة المدينة وبدايتها.

وختاماً نختم عجالتنا هذه باختصار في الحديث عن العوالم التي جعلت من الشيخ عثمان مدينة هامة، ذلك أنه أمنياً تُعتبر المدينة الخندق الأول للدفاع عن كريتر وملحقاتها ولمنع الهجمات عليها حصل ذلك في أعوام ١٨٤٠م و١٨٤١م و١٨٥٨م وحصل أخيراً في١٩٩٤ م عندما خسر المدافعون لأن الانفصال كان مدعوماً من قوى غير يمنية، كما أن الشيخ عثمان كانت ولا زالت وما حولها مصدراً لتزويد المستعمرة بالمياه، وأخيراً فإنها أسرع واسطة وأجداها اقتصادياً لعبور الجمال سابقاً والناقلات حالياً لتزويد كريتر والبريقة والمعلّا والتواهي بمختلف ضروريات الحياة.

ذكريات الماضي

وفي جلسة المقيل تحدّثنا عن ذكريات الماضي في مدينتنا الشيخ عثمان الباسلة هذه المدينة التي ولد فيها الكثير من الرموز الوطنية من سياسيين ومناضلين أبطال الذين قارعوا الاستعمار سلمياً ثم بالكفاح المسلّح في ثورة ١٤ أكتوبر المجيدة من خلال تلك المعارك البطولية التي شهدتها شوارع الشيخ عثمان بصفة خاصة، وكافة مناطق عدن أيضاً.. وكبّدوا الاستعمار خسائر فادحة في الأرباح والعتاد.. ونذكر هنا تلك المعارك الضارية التي فجّرها الثوار الأحرار في شارع الهاشمي وغيره من شوارع الشيخ عثمان عند وصول لجنة تقصي الحقائق للأمم المتحدة في عام١٩٦٧ م والتي حضرها العديد من الإعلاميين الأجانب (صحافة وتلفاز) وأطلقوا حينها على مدينة الشيخ عثمان (فيتنام الصغيرة) ولقّن الثوار الهزائم النكراء للجيش البريطاني وأجبروه على الجلاء عن جنوب الوطن في يوم ٣٠ نوفمبر١٩٦٧ م.

كما كانت ولا زالت مدنية الشيخ عثمان تزخر بالكثير من أبنائها الذين أصبحوا روّاداً في التربية والتعليم وفي الحركة الثقافية والفنية وجهابذة في القانون الدولي وصحفيين ومهندسين ماهرين ونجوماً في الرياضة وضبّاطاً كباراً في القوات المسلحة والأمن وغيرها من مجالات الأعمال المتفوقة في الحياة.

وتطرّق الأصدقاء إلى زيارة الهاشمي التي كانت تقام كل عام في ثالث أيام عيد الأضحى المبارك.. والتي كان يحضرها جموع غفيرة من المواطنين من مناطق عدن والمناطق المجاورة لها للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة والمشاركة في ألعاب (الدراهين) أي المراجيح وسباق الجمال وغيرها من الألعاب المسلية وزيارة ضريح الشيخ هاشم بحر ولكن للأسف الشديد بعد إعادة تحقيق الوحدة اليمنية قام جماعة من المتطرفين بهدم ضريح الهاشمي وقالوا إن تلك الزيارة تُعتبر (بدعة).. وهكذا تم منع إقامة زيارة الهاشمي منذ ذلك الحين.. أما بالنسبة لمسجد الهاشمي القديم فقد قامت مجموعة شركات هائل سعيد أنعم بإعادة بنائه بطراز معماري يمني أصيل.

غلاء الأسعار

وعن غلاء الأسعار تحدّث الأصدقاء مطالبين الحكومة بضرورة تحسين الأوضاع المعيشية للمواطنين في عموم محافظات الوطن اليمني الكبير.. والعمل على إيجاد المعالجات المطلوبة وتثبيت الأسعار للمواد الغذائية وخاصة بالنسبة للأسماك.. حيث وأن بلادنا تزخر بالثروة السمكية التي يتوجب استغلالها الاستغلال الأمثل مع ضرورة العمل أولاً على توفير الاستهلاك المحلي للمواطنين من الأسماك وبيعها بأسعار مناسبة يمكن للفقراء شراؤها وما أكثر الفقراء في بلادنا.. وبعد ذلك يمكن تصدير الفائض من الأسماك إلى الخارج وليس كما يحصل حالياً بالاصطياد العشوائي وتصدير كميات كبيرة من الأسماك إلى الخارج وحرمان المواطن الفقير من الحصول على السمك.

العودة إلى صنعاء

وفي صباح يوم السبت قبل الماضي توجهت إلى مطار عدن للسفر إلى صنعاء على طيران السعيدة وهناك استقبلني الأخ/ هشام السروري – مدير محطة عدن – والموظفون العاملون بالسعيدة الذين قدّموا لي ولغيري من المسافرين التسهيلات والخدمات السريعة النوعية وتوجهنا إلى صالة المغادرة.. وكعادة طيران السعيدة الالتزام بمواعيد الإقلاع والوصول المضبوطة غادرنا مطار عدن الساعة التاسعة صباحاً.. ووصلنا مطار صنعاء بسلامة الله وحفظه الساعة التاسعة والخامسة والثلاثين وذلك بعد قضاء ثمانية أيام جميلة وسعيدة في عدن.

● شوارع الشيخ عثمان شهدت معارك بطولية ضد المستعمر

● مسجد الهاشمي القديم قبل إعادة بنائه من جديد

● ضريح الهاشمي قبل أن يهدم